ليوناردو بادورا حتى وإن غادروا المكان

رواية عن المصير غير المتكافئ

جعفر العلوني

لقد بدأ اليوم عكراً بالنسبة لأديلا، الشّابة النّيويوركيّة من أصول كوبيّة. هذا الصّباح استقبلت مكالمة أمّها الغاضبة منها منذ أكثر من عام لأنها لم تنتقل إلى ميامي فحسب، بل تعيش مع ماركوس، الشّاب الهافانيّ الذي وصل مؤخّراً إلى الولايات المتّحدة واستطاع بجاذبيته احتلال قلب أديلا بالكامل، إلا أنّ والدتها لا تريد أن تقبل هذه العلاقة بسبب أصوله. بسحره، راح ماركوس يروي لأديلا حكايا الطّفولة مع مجموعة من الأصدقاء في الجزيرة الكوبيّة، حيث كانوا يطلقون على أنفسهم تسمية «الشلّة»، كاشفاً لها إحدى الصّور التي التقطوها لأنفسهم في آخر غداء في كوبا، لترى أديلا، التي كانت على ثقة تامّة أنّ اليوم سيكون عكراً بالكامل، وجود أحد أفراد عائلتها في الصّورة التي عمرها أكثر من خمسة وعشرين عاماً. بابُ الهاوية فُتح على مصراعيه ومن الصّعب إغلاقه بعد الآن.

«مثلَ غبارٍ في الهواء» هو عنوان الرّواية الجديدة للرّوائي الكوبي ليوناردو بادورا، والتي صدرت مؤخراً عن دار «Tusquetes» (أغسطس، 2020)، وتروي قصّة مجموعة من الأصدقاء، «الشلّة»، الذين نجوا من مصير المنفى والشتات، في برشلونة، في أقصى شمال غرب الولايات المتحدة، في مدريد، بورتوريكو، وبوينس آيرس. ماذا حلَّ بهم وهل ظلّوا أصدقاء؟ ما مصير من غادر ومن قرّر البقاء؟ هل غيّرهم الزّمن؟ وهل سيعيدهم مرةً ذلك الشعور المغناطيسي بالانتماء، أم أن حياتهم تبعثرت تماماً كمثل غبار في الهواء؟ يبدأ بادورا في الإجابة عن هذه الأسئلة انطلاقاً من العام 1990، عندما تفجّرت الأزمة الكبرى النّاجمة عن سقوط المعسكر الاشتراكي في كوبا، وصولاً إلى العام 2016 والزّيارة التّاريخيّة للرئيس الأميركي باراك أوباما إلى الجزيرة. ستة وعشرون عاماً يسرد خلالها الرّوائي الكوبي المنفى والشتات، وهو موضوع لطالما تعامل معه، لا سيّما في عمله «رواية حياتي» (2002)، إلا أنّه اليوم يحبك مصير شلّة كوبيّين مع ترنيمة الصّداقة وخيوط الحبّ الخفيّة، الولاءات القديمة، وشعور الانتماء والبقاء. وبطبيعة الحال، ستكون الصّداقة هي الرابط التي يجمع أواصر شلّة شباب متنوّعة اجتماعياً، مؤلّفة من أطباء ومهندسين وموظّفين وفنّانين وكتّاب، مختلفين في ميولهم، إضافة إلى أشخاص من أصول متواضعة وحّدتهم صداقة تأسّست على كوبا ثوريّة شاركوا فيها أحلامهم وتجاربهم منذ أن كانوا مراهقين، ولكن مع مرور الوقت وتغيُّر المشهد السّياسي، لا سيّما مع انهيار الاتحاد السوفييتي، يجد هؤلاء الأصدقاء أنفسهم، لأسباب مختلفة وفي أوقات مختلفة، مضطرّين لاتخاذ قرار الرّحيل أو البقاء. غير أنّ المنفى لن يكون عائقاً أمام صداقتهم أو يمنعهم من البقاء على اتصال أو في بعض الحالات، مساعدة أولئك الذي قرّروا البقاء.

كل هذا يحبكه بادورا في رواية ضخمة (650 صفحة) مادتها الخام خيوط صامتة لشخصيات تلقي بنفسها في البحر، ضائعة في رحلة حيويّة وشخصية وحميمية يمكن أن تكون رحلة بلد بأكمله.

وعلى عكس رواياته الأُخرى، يجدد بادورا هذه المرّة في تركيبة الرّواية وبنيتها الداخليّة، عابثاً، عن قصد، في الزّمن الذي يتحرّك ذهاباً وإياباً، للأمام وللخلف، متّبعاً منطق استحضار الشّخصيات وذكرياتها، تجاربها وشتاتها، دون احترام أيِّ تسلسل زمني، مؤلّفاً بذلك كولاجاً ثلاثيَّ الأبعاد يتحرّك في الزّمن والمكان والقصص التي يرويها، ليبني، في نهاية المطاف، مكاناً واحداً، وزمناً واحداً وقصّة واحدة.

ضمن هذا السّياق يأخذ بادورا شخصياته للعيش في الولايات المتّحدة الأميركية، في مدريد، برشلونة وغيرها من المدن، لتبدأ هذه الشخصيات باستحضار الماضي وتذكُّر ما كانت عليه حياتهم، مبرزين أهمية الصداقة من أجل الاستمرار. وكما العادة في كل روايات بادورا، لا بدّ من وجود لغز في حبكة الرواية يجب العمل على حلّه، ضمن هذا الإطار يأخذ الكاتب شخصياته لحلّ لغز الانتحار الغريب لأحد أفراد «الشلة»، علاوة على اختفاء إليسا الجذابة، إحدى الشخصيات الرئيسية ضمن المجموعة.

وبطبيعة الحال سيكون فكّ رموز هذه الألغاز عذراً درامياً بسيطاً لهجرة بعض شخصيات الرواية، وهكذا يتمّ السفر إلى سيناريوهات مختلفة مع هذه الشخصيات ومع أطفالهم، في محاولة من بادورا لتقديم صورة شاملة عن ظاهرة المنفى.

«في عام 1959، شخصيات مقرّبة من ديكتاتورية باتيستا غادرت كوبا لارتباطها بجرائم سياسية. ثم بعد ذلك، في السنوات اللاحقة، كان منفى البرجوازية العليا، ثم الطبقة الوسطى. في الستينيات والسبعينيات حدثت موجات هجرة كبيرة، وآخر هروب جماعي من كوبا حدث في العام 1994. ظاهرة المنفى غنيّة جداً، وهي اليوم حاضرة بشكل أساسي بالنسبة للشباب، فالكثير منهم يهاجر بحثاً عن احتمالات حياة جديدة، وعلى الرغم من أن البعض يعاني من الشتات، فإن خيار العودة ليس متاحاً للكثير منهم، وهذا عامل وجداني مهم لا بدّ من الكتابة عنه». يؤكد الكاتب.

سيفاجَأ قارئ الرواية بعدم وجود بطل رئيسي في الكتاب، إنّنا أمام رواية شخصيّات تمرّر كل شخصية فيها الشعلة إلى أخرى تتحرّك في مدار الحبكة الروائية خالقةً مسارها الخاص. في ضوء هذا كلّه، ستكون الشخصيات النسائية الأكثر جاذبية للقارئ، كما أنها ستساعد الكاتب في بناء حبكات درامية جذّابة، لا سيمّا كلارا، وإليسا وابنتها أديلا. كلارا، التي تقرّر البقاء في كوبا، ستكون عصَب الشلة، فهي الشخصية التي تفهم الجميع: من شكّك ومن خاف، من وافق ومن تراجع. من استمر قدماً في قراره بالرحيل ومن نظر إلى الوراء. ربما كانت كلارا، بالنسبة للكاتب، رمزاً لجيله الذي قرّر البقاء في الجزيرة، كنوع من توكيد الانتماء.

إذاً، نحن أمام رواية مصير غير متكافئ لبلد قائم على المواجهة الدائمة، ولكننا كذلك أمام رواية غضب وكرب وحزن وحنين نحو وطن يُحوّل منفييه إلى أشباح، وهي أيضاً رواية حول إمكانية العودة أو استحالتها، لتكون بذلك حجر أساس لجميع المنفيّين في العالم ولأولئك الذين يعيشون في العراء. ولعل هذا ما أراده بادورا تحديداً: أن يخلق عبر مشاجرات عاطفية لمجموعة من الأصدقاء الذين يغادرون مكاناً معيّناً نوعاً من الإخلاص والحب الأبدي لذاك المكان، حتى ولو غادروا.

(كاتب ومترجم سوري)

ليوناردو بادورا (بول أندِرسن/Getty)

سرقة آثار مصر في رواية مصورة

جذور الاستعمار ليست هزلاً

نجم الدين خلف الله

ترك كلٌّ من جيامباتسيا بلزوني (1778-1823) وسارّة باين (1755-1825) مُذكّراتٍ منفصلةً، صوّرَا فيها ما كابَداه في سفرهما إلى أرض مصر والنّوبة، في بداية القرن التاسع عشر. ثم ضاعت تانِك الرّحلتان في رفوفِ المَكتبات. وبعدَ عودة غريغوري غاري (1970) ونيكول أوجيرو (1970)، وهما رسّامان فرنسيّان، في السنوات القليلة الماضية، من رحلتهما المصريّة، غاصا في كنانيشِ رحّالة القرن التاسع عشر الغربيين، فَاكْتشَفا، وبمحض الصدفة، مذكّرات بلزوني ذات الستمائة صفحةً.

وقد شكّل هذا الكتاب المهجور، بالنسبة إليهما، كنزًا من الأحداث والمواقف والمغامرات اللافتة فأعادا تخيّل مشاهد طريفة باسترجاع ديكورِ القاهرة والأقْصُر، وما كانت تَرتديه ساكنتُها من الثياب الفضفاضة والشالات والضفائر خلال القرن التاسع عشر. استند الرسامان إلى تلك الأوراق لصياغة رواية مصوّرة - مع لوبي كاستيل - بعنوان «أسفار بلزوني إلى مصر والنوبة» (دار النشر FIBIB) صدر جزؤها الأول في 2017 والثاني في 2018، لتكمل مع الجزء الثالث والأخير هذا العام. إذنْ تَعود بدايات القصّة إلى مقامَرةٍ عاشها رجلٌ إيطاليٌّ رَبْع القامة، يتجاوز المتريْن طولاً، عريض المنكبيْن، كان مغمورًا، يكتسب قوت يومه من تَليينِ الحَديد وصنع التجهيزات ضمنَ سِرْك حيواناتٍ في إيطاليا، في نهايات القرن الثّامنَ عشرَ، وما لَبث أن فرَّ منها في اتجاه الشمال، نحو إنكلترا، حتى لا يتجرّع مرارةَ الاحتلال الفرنسيّ، في عهد الإمبراطور نابليون بونابرت (1769- 1823)، الذي وضع يده على شمال إيطاليا لخَمس سنواتٍ، بدءًا من 1805.

ومن إنكلترا انتقَل بلزوني إلى مالطة، ومنها إلى مصر بحُكم كَلَفِه الشديد بالمُغامرة وحبّه للاستكشاف. وعلى عينِ المكان، سيَتَخَصّص في ما سَيُسمى في ما بعد: Egyptologie أو علم المصريات، والتي لم تَكن تعني، آنذاك والآن، سوى التفنّن في سرقة آثار مصر عبرَ الطرق البريّة والبحرية، مع صياغة خطاب يتزيّا برداءٍ علميّ ليُبرّر نَهبَ تلكَ الكنوز. وفي سبيل ذلك، قام الرّجل بجهود واضحة في التأقلم مع الأجواء الشرقيّة. وقد صرّحَ غريغوري غاري: «ما يعجبني في هذا الرجل أنّه كان، طيلة سفره، يناكفُ الأوروبيين الأكثر بورجوازيةً منه. ولذلك، تعلّم اللغة العربيةِ، ثمّ اندمجَ في البيئات المصريّة، يشدّ الحبال ويَجذبها». وأما سارّة باين زوجتُه، فكانت هي الأخرى، طويلةَ القامة، مدمنةً على الكتابة، إذ كانت تخطّ في كنانيش ما تعاينُه أثناء إقامتها بمصر وبسائر مناطق الشرق الأدنى، وصولاً إلى فَلسطين، فقد شاركت زوجَها في البداية في عمليات الحفر والتنقيب عن الآثار ثم عَكَفَت على ما يهمّها، بالدرجة الأولى: دراسة أوضاع المرأة في تلك المنطقة من العالَم، دراسة محكومة بشعور من التفوّق كان يُغذّي تحرّكاتِها وأسئلتها.

وهكذا، كان من نتائج هذه الغزوة التي قاما بها سنة 1830، سرقة (ولنُسمّ الأشياء بمسمياتها) النصف الأعلى لرمسيس الثاني الذي يَزن سبعة أطنانٍ كاملة، ويقبع اليومَ، دون مساءلةٍ ولا اعتذارٍ، في المتحف البريطاني بلندن. وذلك بعدَ أن وظّفَه القنصل الإنكليزي، وقتها، هنري صالت (1790-1804) وكلفه بنَهب هذا التمثال. وقد مكّنت هذه المهمة بلزوني من التعبير عن شماتته بالقنصل الفرنسي برناردينو دروفوني (1790-1890) الذي مثّل الاحتلالَ ونهبَ خيرات بَلَده. وطبعًا، لم يكن يَرَى أية غضاضة في الاستيلاء على آثار مصر.

وأما سارة باين فقد تنكّرت في زيّ المَماليك، وقطعت المفاوزَ والفَيافي حتى تَتعرّف على أوضاع المرأة العربية من الداخل، وقد أوصلتها شجاعَتُها إلى أرضٍ فلسطين، فكتَبَت عنها صفحاتٍ حيةً جريئَة، نرجو أن تحظى باهتمام الباحثين العرب.

(كاتب وأستاذ جامعي تونسي مقيم في باريس)

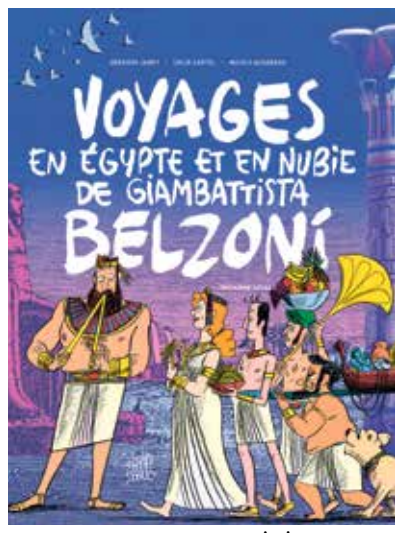

غلاف الجزء الثالث

> أعمال ترسّخ الصور السلبية التي يحكمها منطق الهيمنة

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

نظرة أولى

صدر حديثًا عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» كتاب «**نقد الذات**»، تأليف سعيد منتظري وترجمة فاطمة الصمادي. العمل شهادة مهمة من شخصية كانت في مركز صنع القرار في مرحلة حرجة من تاريخ إيران الحديث، بشأن كثير من القضايا الإشكالية التي لا يزال الجدل قائماً بشأنها إلى اليوم؛ حيث يقدّم فيه رواية ناقدة لمنعطفات تاريخية بارزة في عمر الجمهورية الإسلامية، منها ما يرتبط بأحداث داخلية وأخرى تتعلق بالسياسة الخارجية. يتضمّن الكتاب رواية آية الله منتظري حول زيارة المبعوث الأميركي ماكفارلين وقضية الرهائن.

صدر حديثاً عن دار «نينوى» كتاب «**المكتبة الجهنمية في أدبيات الديكتاتورية**» من تأليف دانيال كالدر، وترجمة مأمون الزائدي. يتناول العمل سيَر الكتب التي ألّفها رؤساء وملوك في أنظمة شمولية مثل هتلر وموسوليني وماو وغيرهم، وتضم الشعر والنثر والمذكرات وبعض الروايات الرومانسية أيضاً. يطرح الكتاب سؤال: لماذا يكتب الطغاة؟ وماذا تكشف هذه الكتب عن الروح الديكتاتورية؟ وكيف يمكن أن تسبب الكتب ضرراً هائلاً ودائماً؟ يجيب الكاتب عن هذه التساؤلات من خلال تأمُّل الكتب التي أصدرها رؤساء وحكام في القرن العشرين.

صدر حديثاً عن منشورات «ماكميلان» كتاب «**سجل دائم**» لإدوارد سنودن. العمل هو مذكرات الرجل الذي فضح نظام المراقبة الجماعية للحكومة الأميركية، وفيه يكشف لأول مرة قصة حياته، بما في ذلك كيف ساعد في بناء هذا النظام وما الذي دفعه لمحاولة إسقاطه عام 2013، حين صدم سنودن العالم عندما انفصل عن «المخابرات الأميركية». المذكرات تبدأ من ضواحي بيلتواي الريفية في طفولته إلى أن عمل مع «وكالة الأمن القومي» ثم كيف انشق عنها، ثم الوقائع التي مرّ بها بعد ذلك. العمل سرد لحياة سنودن على الإنترنت وهو مذكرات مهمة لعصرنا الرقمي.

عن دار «دَرَج» صدر كتاب «**بغداد.. قصة هوية**» لبلال سمير. يعكس الكتاب انشغالات معمار بمدينته بغداد وأبنيتها، وراهنها من خلال قصص مستمدة من تاريخ المدينة وسير بنّائيها، مصائبها ومتاعبها وتفاصيل الحياة اليومية فيها، لـ «تصبح القراءة مشابهة لطقس استكشاف الذات، لربط صفاتنا الشخصية بمسبباتها، أي من تلك المباني يجعلنا حالمين؟ أي منها يجعلنا شجعاناً؟ وأي منها يجعلنا متفائلين؟» بحسب كلمة الناشر. يذكر أن بلال سمير معمار وأكاديمي عراقي من مواليد 1983، حاصل على شهادة الدكتوراه في العمارة عام 2017 من الجامعة التكنولوجية في بغداد.

ضمن إصدارات تظاهرة «تونس عاصمة الثقافة الإسلامية» التي أقيمت السنة الماضية، صدر مؤخراً كتاب جماعي بعنوان «**شهيرات التونسيات.. تراجم وآثار**». يستعيد العمل عنوان كتاب للمؤرّخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب (1884 - 1964) حاول فيه التعريف بنساء لهن أثر في تاريخ تونس، ومن هنا يبدو الكتاب الجديد محاولة لتحيين هذا المشروع حيث نصل إلى تاريخ تونس الحديث والمعاصر. شارك في العمل كل من: الصحبي بن منصور، ومنجية السوايحي، وأحمد الطويلي، وآمال بوغانمي، وعادل بن يوسف، وجميلة الماجري، وابتهال عبد اللطيف.

بترجمة عادل أسعد الميري، صدرت مؤخراً عن «آفاق» النسخة العربية من رواية «**البازار الأسود**» للكاتب الكونغولي-الفرنسي آلان مابانكو (1966). صدر العمل لأول مرة في 2009 عن منشورات «سوي»، وقد تناول فيه المؤلف أحوال ذوي الأصول الأفريقية والعربية في باريس في قراءة لتفاعل الجذور التي تحكم هؤلاء والإكراهات الاجتماعية والاقتصادية التي يفرضها البحث عن النجاح في فرنسا. من أعمال مابانكو الأخرى: «أزرق، أبيض، أحمر» (1998)، و«أفريكان بسيكو» (2003)، و«أضواء من باونت ناور» (2013)، و«اللقالق لا تموت» (2018).

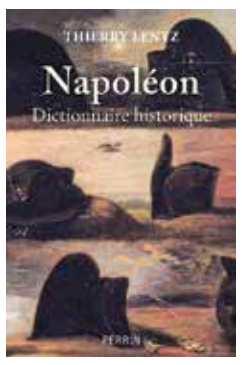

عن «بيران»، صدر مؤخراً كتاب «**نابوليون.. المعجم التاريخي**»، وقد أعدّه الباحث تيري لانتز. يقترح العمل مجموعة من المداخل التي تتيح النظر في الحياة المثيرة لمؤسس الإمبراطورية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر من زوايا متنوّعة، بعضها معروف مثل المعارك التي خاضها، أو المناصب التي شغلها، وبعضها الآخر يمثّل إضافة يقدّمها الكتاب مثل الكُتّاب الذين كان نابليون يحبّهم، أو الروايات التي حضر فيها كشخصية فاعلة. يذكر أن لانتز سبق وقدّم أعمالاً حول نابليون مثل: «انتهى بونابرت»، و«شاتوبريان ونابليون»، و«أفكار مكرّسة حول نابليون».

صدرت حديثاً طبعة جديدة من كتاب «**رباعيات عمر الخيام المنظومة والمترجمة**» لأحمد زكي أبو شادي عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» بتحرير ودراسة الأكاديمي والباحث الأردني يوسف بكار. قدّم الشاعر المصري (1892 - 1955) في كتابه هذا الرباعيات للقارئ العربي في طبعة أولى عام 1931، نقلاً عن الشاعر فرنسيس سكوت فيتزجيرالد التي ترجمها من الفارسية إلى الإنكليزية، بينما يذهب بكار في تقديمه إلى إثبات أن معظم ما تمّ نسبته إلى الخيام من رباعيات لا تثبته الروايات التاريخية التي تشير إلى نظمه عدداً محدوداً منها في حياته.